افتتاحيّة العدد

نرحب بكم في هذا العدد الخاص، وهو التايع من تيلوس، حول فلسطين. يضم العدد مجموعة غنية ومتنوعة من المقالات التي تسلط الضوء على قضيّة تحرّر الشعب الفلسطينيّ.

يتناول أسعد قطّان التغيرات السياسية والمجتمعية في إسرائيل بعد عملية «طوفان الأقصى» وتأثيرها على القضية الفلسطينية، مع التركيز على محاولات الترانسفير وإعادة تشكيل الخريطة السكانية في المنطقة. ويحلّل د. شوقي عطيّة الصراع الديموغرافيّ داخل فلسطين المحتلّة وعلاقة الديموغرافيا بسياسات التهويد والأسرلة. بينما تناقش عفيفة كركي دور الأفراد في مقاومة الظلم والاضطهاد، مركزةً على أهمية التضامن مع القضية الفلسطينية ومقاطعة الكيان الصهيوني كجزء من المسؤولية الإنسانية. وتتناول ميمونة س. خان ود. يحيى اللهيب دور الدين في التغطية على المصالح الإمبريالية والاستعمارية، مسلطين الضوء على كيفية استخدام الدين لتبرير الاحتلال والإبادة الجماعية في فلسطين. بينما يحلّل د. محمد البشير رازقي أسباب الفشل في التنبؤ بحدث «طوفان الأقصى» من منظور علم الاستشراف، فيتناول الجوانب الجيوسياسية والاستراتيجية للصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

وفي الجناب الأدبيّ للعدد. يسرد خالد بركات ذكرياته الشخصية عن طفولته في القدس، مسلطًا الضوء على الحياة اليومية والتجارب الثقافية والاجتماعية في المدينة المقدسة من منظور تاريخي وإنساني. ويتناول د. بسام صابور الجانب المعماري والثقافي والتاريخي للقدس، مستعرضًا تجارب شخصية وذكريات عن المدينة، مشددًا على الأهمية الروحية والتاريخية للقدس في حياة الشعوب العربية. ويعبّر جيم كاف في قصيدة ملفتة عن مشاعره تجاه غزة، واصفًا إياها بمزيج من الجمال والصمود في وجه العدوان، مصوّرًا غزة كرمز للمقاومة والتحدي. ويسلّط محمد عبدالله فضل الله في تأمّل لافت الضوء على الصمود الفلسطيني والإصرار على الحق، وضرورة الاستمرار في النضال والمقاومة من أجل تحقيق الحرية والكرامة. ويتأمّل خريستو المرّ في الجوع والعدالة والقيامة، مع تصوير مؤثر لمدينة غزة كرمز للألم والأمل.

نأمل أن تجدوا في هذا العدد ما يثري فكركم ويشجعكم على المزيد من البحث والتفكير. نرحب دائمًا بملاحظاتكم وتعليقاتكم، ونتطلع إلى مشاركتكم في الأعداد القادمة.

أسعد قطّان وخريستو المرّ

فلسطين بين احتمالات الترانسفير وتبدّل المشهد الإسرائيليّ

أسعد الياس قطّان

جنح الخطاب الإسرائيليّ، بعد عمليّة «طوفان الأقصى» التي قامت بها حركة «حماس» يوم السابع من أكتوبر/تشرين الأوّل ٢٠٢٣ في الداخل الإسرائيليّ أو ما يعرف باسم «غلاف غزّة»، إلى تصوير الأمور على أنّ ما حدث هو نوع من خطأ تاريخيّ لا بدّ من تصويبه. جوهر هذا التصويب هو الهزيمة العسكريّة للحركة وتحرير الرهائن الذين تمكّنت من اختطافهم. روّجت الدعاية الرسميّة لسرديّة فحواها أنّ الأمور سترجع بعد تحقيق هذين الهدفين إلى سابق عهدها، علماً بأنّ هذا التحقيق ربّما يطول، إذ سيستغرق شهوراً طويلةً قد تصل إلى حوالى السنة.

في المقابل، سعت إسرائيل، مستغلّةً التعاطف الدوليّ معها إبّان الأسابيع الأولى بعد عمليّة «حماس» العسكريّة، إلى تحقيق حلم قديم راود كثراً من قادتها عنوانه الترانسفير، أي ترهيب الغزاويّين ودفعهم إلى مغادرة أرض آبائهم وأجدادهم في سيناريو يشبه، إلى حدٍّ بعيد، سيناريو النكبة التي حصلت العام ١٩٤٨. ولعلّ العمليّة الإجراميّة المروّعة التي نفّذتها آلة القتل الإسرائيليّة، عبر تدمير غزّة وقتل الآلاف من أهلها، لم تهدف إلى الانتقام فحسب، ولم تكن مجرّد تعبير عن حالة الجنون المطبق الذي أصاب معظم المجتمع الإسرائيليّ بعدما خلخلت عمليّة «طوفان الأقصى» العالم «الافتراضيّ» الذي كان يعيش فيه، بل كانت أيضاً جريمة قتل جماعيّة متعمّدة تسعى إلى كسر عزيمة الفلسطينيّين وسوقهم إلى الخروج من أرضهم والبحث عن مستقبل أكثر أماناً في مكان آخر.

اليوم، أكثر من أيّ وقت مضى، يبدو مستقبل القضيّة الفلسطينيّة محكوماً بعاملين أساسيّين هما التبدّل الذي ستشهده دولة إسرائيل بعد عمليّة الطوفان ومدى نجاح إسرائيل في تنفيذ سياسة ترحيل الفلسطينيّين إلى مصر والأردنّ (وربّما لبنان)، فضلاً عن دول أخرى تقع خصوصاً في إفريقيا وأميركا الجنوبيّة. طبعاً، هذا لا يستتبع انتقاصاً من عوامل أخرى ذات شأن وأسئلة لا نملك ترف الإجابة عليها اليوم: ماذا سيكون مستقبل العمليّة العسكريّة في مدينة رفح؟ هل ستنجح الفصائل الفلسطينيّة في التوحّد، بعد طول انقسام، وفي بلورة مشروع مشترك يكون في حجم ما بذله الشعب الفلسطينيّ من تضحيات؟ هل الاعتراف بالدولة الفلسطينيّة هو خيار جدّيّ بالنسبة إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة في المستقبل؟ هذه الأسئلة كلّها مهمّة طبعاً. لكن يبقى السؤال المركزيّ هو في أيّ اتّجاه ستتغيّر إسرائيل بعد الطوفان الذي حلّ بها؟

بخلاف ما تروّج له السرديّة الإسرائيليّة ذات الطابع التبسيطيّ، لن ترجع الأمور إلى سابق عهدها في إسرائيل. هناك، طبعاً، محاسبة ستطال الساسة والمسؤولين العسكريّين بدأت طلائعها تلوح، وإن كان بعض القادة في السياسة يسعون، بكلّ ما أوتوا من قوّة، إلى إطالة الحرب ودفع الآليّات العقابيّة عنهم. لكنّ ما يضاهي هذه المحاسبة أهمّيّةً هو التغيّر الذهنيّ الذي سيلحق بالمجتمع: هل سيزداد هذا المجتمع إيماناً بالعنف وسيلةً لردء الخطر عنه، أم سيتعلّم من تجربة العقود الأخيرة أنّ العنف لا يفضي إلّا إلى مزيد من العنف؟ هل سيدرك أنّه لا يستطيع أن يعيش بأمان وطمأنينة ما دام جيرانه، الذين يتشارك معهم الجغرافيا والاقتصاد وكثيراً من المخزون الثقافيّ، مسحوقون ومحاصرون ومعرّضون على نحو يوميّ لآفة العنجهيّة الإثنو-دينيّة وسياسات الفصل

العنصريّ؟ لا شكّ في أنّ عمليّة «طوفان الأقصى» زعزعت السرديّة التي تزعم أنّ دولة إسرائيل مكان آمن لليهود يستطيعون أن يلجأوا إليه في أيّ وقت، وأيّاً يكن المكان الذي يأتون منه. هذا الأمان المفترض هو جوهر الفكرة الإسرائيليّة على المستوى الإيديولوجيّ، وهو قلب المشروع الإسرائيليّ على المستوى الاقتصاديّ. ماذا سيكون مصير هذه السرديّة؟ هل ستتعرّض للانفضاح بوصفها خرافة؟ وهل يستتبع هذا الانفضاح أن يفقد اليهود المقيمون في إسرائيل ثقتهم بالفكرة الإسرائيليّة، ما يدفعهم إلى نوع من هجرة معاكسة، ولا سيّما أنّ أصقاع الأرض كافّةً مفتوحة لهم وهم يستطيعون الاستقرار في أكثر المجتمعات رقيّاً وغنًى؟

لئن كنّا اليوم لا نلمّ بكلّ ديناميّات التبدّل التي ستكون من نصيب المجتمع الإسرائيليّ على المدى المتوسّط، إلّا أنّنا نستطيع، منذ اليوم، أن نستشرف أنّ هذا المجتمع لن يبقى كما كان قبل السابع من أكتوبر. هذا مستحيل، بكلّ بساطة. وربّما تكون الدعاية الإسرائيليّة التي تروّج إلى عودة الأمور إلى نصابها بعد الحرب، وكأنّ شيئاً لم يكن، هي نوع من ردّ فعل ساذج على الخوف من التبدّلات الماحقة التي يبدو أنّها تتربّص اليوم بالكيان الإسرائيليّ، وسرعان ما ستنفجر.

جواب ساسة إسرائيل عن ضبابيّة المشهد المرتبط بالمستقبل، بما فيه تبدّل النموذج الذهنيّ لدى سكّان دولة إسرائيل وتعطّل مصالحها الاقتصاديّة، هو الترانسفير، أي التخلّص من الفلسطينيّين عبر تهجيرهم. تشبه هذه المقاربة، إلى حدّ لا يستهان به، منطق «الحلّ الأخير» (Endlösung) للمعضلة اليهوديّة الذي روّجت له الإيديولوجيا النازيّة، وهو يتلخّص في إبادة اليهود في المحارق الجماعيّة. التهجير، طبعاً، غير الحرق. لكنّ كلاهما يستند إلى الاقتناع الضمنيّ بأنّك تستطيع معالجة المشكلة التي تطرحها عليك جماعة ما عبر مجرّد حذفها من واقعك. لقد أثبتت الحرب التي تدور رحاها في غزّة منذ الخريف أنّه ليس من السهل تطبيق سيناريوهات التهجير. فالغزّاويّون، بالرغم من الضريبة الفظيعة التي يدفعونها، أثبتوا أنّهم متمسّكون بأرضهم تمسّكاً يكاد يكون خرافيّاً. ولا شكّ في أنّ الفلسطينيّين جميعاً، ولا سيّما أولئك الذين يعيشون اليوم على أرض فلسطين التاريخيّة، استخلصوا الدروس من نكبة العام ١٩٤٨، وتعلّموا أنّ التهاون في مغادرة الأرض يمكن أن تكون له نتائج كارثيّة. يظهر أنّ النخبة السياسيّة في الولايات المتّحدة أغوتها أيضاً فكرة الترانسفير. وثمّة معلومات أنّها سعت إلى الترويج لها إبّان الأسابيع الأولى من الحرب. لكنّ تهجير شعب برمّته ليس اليوم على القدر ذاته من السهولة التي كان عليها قبل نيّف وسبعين سنة. فهو، إذا قُيّد له أن يتمّ، سيتمّ، حرفيّاً، على «مرأى» من العالم كلّه، إذ إنّ صور المطرودين من أرضهم ستغدو في حوزة الملايين من البشر في سرعة قياسيّة، وهذا من الصعب أن يحتمله أيّ رأي عالميّ، وخصوصاً بعدما نجح هذا الرأي، ولو جزئيّاً، في تخطّي عقد خوفه وشرع يزجّ إسرائيل في قفص الاتّهام، وذلك بفضل آلاف البشر الشرفاء حول العالم الذين يؤمنون أن الغلبة يجب أن تكون للحقّ، لا للقوّة. ربّما كان بعض العرب مقصّرين في حقّ الشعب الفلسطينيّ. ولا يُستبعد أن يكون أحد أسباب هذا التقصير ما يشعرون به من توجّس حيال حركة «حماس»، التي لا تنكر دورانها في فلك الإسلام السياسيّ. لكنّ الأكيد أيضاً أنّ معظم العرب يقفون اليوم سدّاً منيعاً تجاه مشاريع الترنسفير التي لا تزال تدغدغ ساسة إسرائيل. وهذه مسألة مهمّة ويبنى عليها.

بين ثبات الفلسطينيّ في أرضهم كالشجر العتيق وتبدّل صورة المشهد الإسرائيليّ بعد الطوفان الجارف، يتقرّر الكثير من مصير القضيّة الفلسطينيّة.